طفولة منسية في المدينة المقدسة

خالد بركات
كاتب فلسطيني من القدس المحتلة

١

في زمن الطفولة كان يوم الجمعة، يوم المشاكل بامتياز، أحصدُ فيه سيئات أكثر من الحسنات، نعم. يبدأ اليوم بمعركة صباحيّة مع خالتي الحجة زريفة. سترفض مثل كل مرة أن أرافقها إلى المدينة، فأكفُر واستنفر، ستقول«استغفر ربك» فلا أستغفر، بل أشتمها وأركض إلى خالتي «أم الياس» أبكي وأصرخ واركلها هي الأخرى، هكذا، دونما سبب، لكني أعرف سلفًا أن هذه الطريقة الوحيدة التي تُحقق أمنيتي. فاذا تدّخلت أم الياس، مثل كل مرّة، سأنتصر. هذا سيناريو متكرّر حفظته عن ظهر قلب:

بعد قليل تُطلّ أم سليم من البلكونة وتقول لها:

- خُديه يا حجّة معك، دخيل ربّك. فَضَحنا

تأتي الحجة زريفة، تشدُّني من ذراعي وتجرّني مثل خروفٌ صغير. ستأكل أسنانها وتلعن اليوم الذي ولدت فيه. كنت أحبُ جارتنا، خالتي أم سليم، لأنها كانت تأخذني معها الى الكنيسة وتشتري لي الكعك. وفي شهر رمضان أهرب اليها في الصباح فأجدها قد حضّرت لي "ساندويش» وأعرف أنها ستعاتبني وتسألني:

- ليش مِفطر يا ولد؟

أقول في رجاء وانا ابلع لقمة:

= لا تقولي لأمي

وحين لا تجيب أقول:

= قولي وحياة مريم العذرا والخضر ما بقول

فتقول: طيب، ابلع على مهلك بلاش تموت

تسند وجهها بكفها وتواصل نظرتها إليّ كأنها تنتظر شيئاً، كأنها تقول:

متى يكبر؟

٢

في العصر، تخطفك إحدى عمّاتك أو خالاتك من الملعب، مثلما يهوي صقر على سمكة صغيرة تصطادني من رقبتي، ولا أعرف كيف وصلت يدها إليّ ومن أين جاءت. يحدث ذلك بينما تستعد انت لضربة جزاء حاسمة قد تُقرر حياتك وحياة فريقك

= والسبب؟

- لازم تتحمم

= ما بدّي اتحمم

في وسعك ان تبكي كما تريد، ترفس وتشتم، لن ينقذك أحد ولن يسمع صراخك أحد في الحارة الشرقية. وأعضاء الفريق مثل غزلان صغيرة تراقب في خوف كيف خسرت واحدة منها.

بعد دقائق تبدأ جولة التعذيب: صابونة «الشكعة» الصلبة، مكعب حجري، مثل صخرة صغيرة لا ترحمك وتهوي على رأسك. حولك أمك وزريفة وأم سليم وام الياس ونصف نساء القبيلة، ينتهكن عرضك وحقوقك ويضحكن.

تقول أمي:

- شوفوا، شوفوا، من كثر الوسخ، الصابونة ما تبري عليه!

...

أنت تكبر في القرية وفي حارات القدس القديمة، بين الأقصى والصخرة. بين القيامة ومسجد عمر. بين القرية والمدينة، وتكتشف أن كل شيء كان مُعَدًّا لك سَلفًا، فما كنت تظنه سرّاً وانتصارًا كان في الواقع يجري بترتيب وتنظيم مُحكم ومدروس أعدّته لك أمك ونساء البلدة.

٣

لم يكُن عَقلي الصغير في وسعه تصّور قبة ذهبية كبيرة وعالية تطاول السماء، تلمع تحت الشمس. بدت الساحة الممتدة أمامنا واسعة بلا نهاية. والمدّرجات الحجرية في كل جهة تنادي عليّ وتقول:

اصعد من هنا لو أردت.

رأيت أشجار السرو والبلوط والزيتون تحيط بي. العشب الأخضر هنا شهيّ يدعوني للعب في ساحة المسجد الكبير. الماء يخرج من نوافير مسوّرة، صوته يدغدغ أذنيّ، ينزل بارداً مثل جداول فضّية من صنابير نحاسيّة وينسكب في أحواض المرمر ويسيل خفيفة باردة ومنعشة بين أصابعي.

غسّلتني خالتي زريفة ومسحت شعري ونظّفت وجهي ويداي، وشربتُ حتى ملأت بطني الصغيرة.

كنتُ أنظر الى الصخرة والقباب الصغيرة حولها فأحسها مكانا أليفاً أعرفه، لكني لا أعرف كيف أبدأ؟ ومن أين أبدأ؟ أنظر في دهشة إلى أسراب الحمام. تكبر دهشتي أكثر كلما ازحت نظري إلى مكان آخر.

هذا المكان السحريّ أكبر من قدرتي على احتوائه. أحسَستُ في رهبة غريبة وسرّية تجري في صدري وعروقي، رغبة عارمة تدفعني الى الضحك والركض والطيران والبكاء، وتمنيت للمرة الثانية لو ان أمي معي الآن.

وحين دخلت المسجد، أوّل مرة، سمعت نداءً خفيًا ينادي:

هي لك.. اذهب حيث تشاء!

٤

الشوارع تمشي وتمشي، ونحن نكبر في بطن مدينتنا المقدّسة، وكلُّ الأشياء تمشي: الدولار والأردنيّ والشيكل والإسترلينيّ، والتنانيرُ القصيرة والنقابُ والحجاب، والصلاةُ على النبيّ، والهلالُ والصليب، وآخرُ صرعة طرازات في محلات جوردان، وبياناتٌ سرّيّةٌ تدعو إلى الثورة والعصيان والإضراب، كلُّها تمشي.

كلُّ شيء، هنا، يتحرّك في بطن المدينة. بائعُ السوس والشرابِ المثلّج وعربةُ الكعك. المقهى يعجّ بالشباب ودخانِ السجائر. صراخٌ وشتائمُ وعراك. صوتُ ارتطام كُرات البلياردو، ورائحة الخطر التي تفوح في الجوّ.

هل تعبنا؟

لا. لم نتعبْ بعد.

قالت الجريدة: بيروت تحترق ولا ترفع راية بيضاء

فتدحرجت فكرةٌ إلى رؤوسنا الصغيرة في وقتٍ واحدٍ. شاهدْنا دورية الجيش تقف وحدها من دون حراسة.

لم نكن في حاجةٍ إلى إكمال الفكرة. قطعةٌ من قماش مغمّسة في الكاز، ولتحترقْ!

٥

لمْ يعُد يأتي الرُّسلُ والأنبياء إلى مدينتنا. حتى الملائكةُ لم تعُد تزورُنا. سهرْنا طويلًا في مقبرة باب الأسباط ندخن الهيشي[١] وننتظر المسيح والمهدي والملائكة والعفاريت، ولم نلمحْ عفريتًا واحدًا. وكنّا نصرف تعبَ النهار وما جمعناه

١ نوع من أنواع التبغ الرخيص الثمن

من بيع الجرائد والعلكة لشراء تذكرةٍ يتيمةٍ في سينما الحمرا، وعلبةِ سجائر من ماركة «تايم» ندخِّنُها دفعةً واحدة، ورغيفِ فلافل نتقاسمه ونلتهمه في لحظة.

نجلس في مقاعدنا، ونلوذ بصمتٍ عميق. بعد قليل سنصعد إلى قرانا فوق تلك التلال العالية، قبل أن تطاردَنا دوريّةُ حرس الحدود، ويهدَّنا التعبُ ويهزمَنا النعاس.

٦

والآن؟

كبرتُ في المنفى، تجاوزت نصف قرن.

عدت من المستشفى مشياً إلى بيتي، دخلت غرفتي ونمت. وحين صحوت اكتشفت انني غفوت لأكثر من ست ساعات وان الليل طرد النهار وبدأ يفرش رداءه في الخارج. نهضت من الفراش واغتسلت.

اشعلت سيجارة وخرجت إلى الشرفة. تذكرت زميلي الدكتور هانز. وضحكت.

قال هانز وهو ينظر من تحت نظّارتيه وينقل عينيه بين وجهي وكومة الورق أمامه:
قلت لك. مَعَك شهرين. ربما أقل..

عاد هانز الى الأوراق، يُقلبها بين يديه ويقول:
هذه الفحوصات الجديدة تؤكد ذلك. لا حاجة لإجراء المزيد منها.

تحدّث الدكتور هانز عن غزو السرطان لجسدي. قال اشياء كثيرة باستفاضة عن "المرحلة النهائية". كنت أستمع الى كل كلمة يقولها هانز لكن بدا لي وكأنه يروي لي قصة شخص آخر لا أعرفه. شخص غريب يعيش في مكان قصيّ في هذا العالم. لم أعرف كيف يتعين عليّ أن أشعر على وجه التحديد.

رأيتُ المسيح مصلوباً. كان يمد لسانه خلف هانز ويقول لي: لا تخف.

وفجأة، انفصلت عن جسدي وعن المستشفى وعن كل هذا العالم. كنت أحلّق في أمكنة وأزمنة أخرى. وانتبهت أنني في الآونة الأخيرة صرتُ أتذكر طفولتي في القدس وأحدث نفسي بلغتي ولهجتي الأصليّة القروية.
كيف حدث هذا؟

قلت في دهشة:
ـ مثير! لن تصدق يا هانز. وانت تتحدث عن الموت والمرض قفز سؤالٌ لم أتوقعه. فكّرت في الماضي والجذور

ـ الجذور؟

ـ نعم. الجذور. يوم ولادتي تحديدًا. تَصّور؟ هل تعلم أني ولدت يوم ولد المسيح. وفي البلدة ذاتها.

قال السيد المسيح وهو يبتسم خلف هانز: لن يفهم أي شيء.

ملاحظة: اتصل هانز وقال لي إن نتائج الفحوصات مبشرة وأنني لن أموت بعد شهرين كما قال. وأنه لا يعرف كيف حدث كل هذا.

فقلت:
إن الإنسان مخلوقٌ عجيب يا هانز.